ساڤونارولا
(رمز العصر الوسيط)

سأحدثك عن عجيبة عصر الرينسانس : چيرولامو ساڤونارولا . ولد فى فبراير ١٤٥٢ ، ثم رفض أن يتعلم مهنة أبيه الطبيب . وهو لا يأنس إلى عصره فى بهجته وتحرره من رباط العصر الوسيط .

كان أبوه طبيب البلاط فى إمارة إستيه ومن أصل نبيل . نشأ ابنه كارهًا لهذا البلاط ، أفراحه ومواكبه وافتتاحه للعصر الجديد بحفلاته ، البلاط المؤتنس بالشعراء ، والملاعبين ، والمضحكين ذوى الشهرة الواسعة فى زمانهم ، والفرسان والأتباع ، والعلماء وملكات الجمال . قصر إمارة « إستيه » مقام فى أساساته سجون بزنزانات يقضى فيها المحكوم عليهم بالمؤبد أن يعيشوا رهن السلاسل . . . حتى الممات .

چيرولامو يأنس إلى فلسفة أرسطو ، ويعيش مؤلفات توماسى الإكوينى ، كارهًا « الهيومانية » الجديدة بكل معانيها . لا يرتاح إلا إلى التربية الدينية على أيدى إسكولائيين من أصائل العصر الوسيط . فإذا قرض الشعر فى العشرين من عمره ، كان ينعى فيه على زمانه ، الخراب والتخريب ، الفوضى التى تشمل الدنيا ، تاهت فيها

الفضائل أو ماتت « إذا رفعت البصر إلى خارج الدار لا أرى سوى الظلام يلتهم العتامة ، والناس فى نشوة العقار لا يخجلون من موبقاتهم » كره البابوية ، وطغيان الاستبداد . فلم ير غير الدير يهرب إليه من العالم الخارجى ، ملتمسًا الراحة من العذاب الذى يشتمل الخاطئين ، يتخفى فى إسكيم الرهبنة ، وقد انتهى به الأمر إلى هجر والديه ، ودخول دير الدمنيكان الذى يحمل اسم « سان ماركو » أسوة بأستاذه الروحى توماسى الإكوينى ؛ كتب إلى أبيه معتذرًا يقول بأنه تارك دنيا تُهان فيها الفضائل ، وتحترم الرذائل ، لم يستقر ولا عرف الهدوء إلا بفلورنسا ، منفعلا بجمال مبانيها الدينية ، وكان إحساسه بأنها الحاضرة التى سوف يحول فيها ويصول ، يخطب فى أهلها ، بعد استقراره فى دير سان ماركو ، مستسلمًا للهدوء أسير مكتبة الدير ، والفريسكات التى زين بها الدير راهب اسمه فرا انجيليكو . ثم خرج إلى دور العبادة يخطب فى الناس بأسلوب تنقصه الخبرة ، ويدفعه إلى ارتجال الخطب لإيقاظ ضمير الشعب التائه فى حياة كلها عسف وجور . ونمت تجربته الخطابية باندفاعه العاطفى . فتوقدت خطبه شعلة لا تنطفئ باسترساله ، إذ تتدافع لعناته ، وتصويره للحالة التى عليها هؤلاء الناس ، وقد نزلوا إلى حضيض المهانة والذل . قال من كان يسجل خطبه :

« وهنا غلبنى البكاء ، والناس فى نواح ، فتوقفت عن الكتابة وسط جمهور لا يكفكف دموعه » .

قال الهيومانى الكبير بيكرديلا ميراندولا ، علامة الجيل : « كان

مجرد صوت ساڤونارولا يملأ أرجاء الكنيسة الحاشدة، وكأنه ضربات القدر تثير فى السامعين قشعريرة تنفذ إلى نخاع العظام، وتَشِدّ شعر الرءوس. فإذا خرج الجمهور إلى الطريق العام، كان سيرهم لانبس فيه. وكأنهم أشباح ذاتهم. وترديد الخطيب لكلمة «الندم» كأنه صوت الرب فى عُلاه، أى نعم! «الندم، فإن سيفًا مصلتًا فوق رءوسكم، هو الممثل لذنوب الكنسية، وأهلها الذين زحموا الدنيا بالزّنى، وارتكاب بقية المعاصى، والحكام الظلمة مجرمون يجيدون العسف، والدوس على الأرواح، أرواحكم أنتم أيها الآباء والأمهات والفتية والفتيات»، والأطفال يلثغون بهجر القول، وكأن الخطيب أمام مرآة تعكس خطاياهم، وتكشف عن أحوالهم النفسية، تحيط بها ألسنة اللَّهَب، والراهب يكشف لهم عن مستقبل الأمة خرابا، وعن بأسائهم القادمة. وستقتحم الأجناد الأجنبية بلادهم.

ما أشبه هذه التنبؤات بمراثى «أرميا» وتهديدات «حزقيال»، أو يوحنا المعمدان، يصرخ بين الأجيال المثقلة بالخطيئة: «التوبة والندم! فقد حضرتكم مملكة السماء». أشار چيرولامو ساڤونارولا فى مذكرة عن خطبة ألقاها فى خلال العام، أكدت على ثلاث نقاط: «يجب أن تتجدد الكنيسة فى زماننا. وسيسبق هذا الإصلاح مصائب تنزل بإيطاليا، معادلة للعقوبات، وإن كل هذا سيحدث عن قريب».

والعجيب أن الراهب فى كلامه كان صادقَ الإحساس بما سيحل

ببلاده ، فلا تعجب أن يوصف سافونارولا بنبي عصر الرينسانس . ولكنه كان فى الحقيقة ملاك الهدم لا البناء ، فلا هو سان دومنك ، مؤسس رهبنة الدومنكان ، ولا هو سان فرانسوا الأسيزى مؤسس الفرنسيسكان ، ولا هو إنياس دى لوايولا منشىء الجزويت . إنما هو تلميذ « العهد القديم » (من الكتاب المقدس) تذاكر فيه لسان ملاخى وأرميا .

وتعجب مع هذا أن قد بدأ غزو الشمال الإيطالى بعد ثلاث سنوات من خطبته الأولى فى كنيسة دير سان ماركو .

اقتحم شارل الثامن ملك فرنسا أرض إيطاليا بجيش عرمرم . وصدقت نبوءته فى الإصلاح الذى سوف يبدأ على يد الراهب الجرمانى مارتن لوثر بلا خطب ، وبلا صراع . فمنذ اللحظة الأولى – ودون أية فكرة بأنه ثائر على روما – التى علق مارتن طريحاته ، وقضاياه الخمسة والتسعين ، على بوابة كنيسة ڤيتنبرج فى ٣١ أكتوبر ١٥١٧ ، انتشرت القطيعة ، وبسرعة النار فى الهشيم ، بين الكاثوليكية والبروتستانتية ، أو ما وصف بالإصلاح (ريڤورم) ، ولم تمض أربع سنوات حتى غدا لوثر أشهر رجل فى بلاد الجرمان ، وقد أُلقِىَ عليه « الحرم » من بابا روما ، متمردًا مطرودًا من حظيرة الإمبراطورية الألمانية ، وكل هذا يحل دمه ، لولا أن حماه وأخفاه فى قلعة « الڤارتبورج » فريديرك ملك سكسونيا . وكان لوثر – قبل إلقاء الحرم – قد وضع سنة ١٥٢٠ أربعة من أعماله التى أصبحت أساسًا للاهوت « الإصلاح » .

ومن أحلام ساڤونارولا ، وهو يفكر بشئون روما ، أن شاهد فيما يرى النائم صليبًا أسود فوق عاصمة الكثلكة ، بلغ عنان السماء ، مكتوبًا فوقه « صوت غضب الرب » .

قال فى خطبته : يا إيطاليا ! ، ياروما ! سوف أسلمكم لناس جاءوا ليمحوكم من بين الشعوب ، سيهجمون عليكم كالأسود ، ويجىء مع الحرب الوباء ، وسيبلغ ازدحام المساكن بالموتى ، أن ينادى اللحّادون فى الطرقات « هل من ميت ؟ هل من متوفى ؟ » . . . أيا روما ! أكرر ياروما ندائى لكم بالندم ، والتماس المغفرة . الندم ياڤنيسيا ، والندم يامیلانو ! .

ساح ساڤونارولا فى المدن الإيطالية ينادى بالويل والثبور ، ويتنبأ باقتراب ساعة الندم . وفى عام ١٤٩٠ جاءه القدر بما لم يتنبأ به ، وهو أن يصبح حاكمًا على فلورنسا . وكان الأمير لورنزودى ميدتشى هو الذى استدعاه إلى فلورنسا فى أغسطس ١٤٩٠ .

وارتقى الراهب الدومنكانى منبر كنيسة دير سان ماركو ، وجاءت خطبته تعليقًا على الحلم الرهيب ليوحنا . وحاز الخطاب الإعجاب العام ، فاستدعى إلى « الدومو » ، كنيسة فلورنسا الكاتدرائية ليقوم فيها خطيبًا دائمًا . وكان الأمير قد عينه رئيسًا لدير سان ماركو ، مدرسة حداثته . فقام بإجراء الإصلاحات فى الأديرة الدومنيكية ببلاد تومكانيا .

كان المنتظر والمفروض أن يتوجه رئيس دير سان ماركو إلى قصر

الإمارة بمناسبة تعيينه رئيسا للدير. ولكن الراهب العنيد لم يعن بأداء هذه الزيارة الرسمية والتقليدية. وكان تعليق الأمير الهادئ، مبتسمًا: «أرأيتم؟ هذا غريب عن المدينة، جاء إلى بيتي، ولم يتنازل بزيارتي». ونسي الأمير أن ساڤونارولا لا يعتبر ديرسان ماركو بيت الرب، لا بيت الأمير، وتوالى عدم خضوع الراهب الرهيب لسلطان الأمير، مع أن لورنزو دي مديتشي لم يتوان عن حضور صلواته، ولم يتأخر في أن يضع في صندوق الدير (النذور) ذهبًا كثيرًا. فكان ساڤونارولا يوزعه على فقراء المدينة، بدلا من وضعه في خدمة الدير وكنيسته.

ولم يكتف چيرولامو ساڤونا رولا باحتواء أمير فلورنسا، بل شرع بالتهجم على البابا فيما سيجيء. إنما كنت أود أن أبدأ هذا الفصل بالواقعة الأخيرة بين الأمير لورنزو وساڤونارولا. حين حضرت الأمير الوفاة، استدعى الراهب الثائر - لأن لورنزو كان مدركًا لقدرة الراهب في شخصيته وبلاغته، وإقبال الناس عليه - ليعترف إليه بخطاياه، طلابًا للغفران. وكان تعليق الراهب على الدعوة: «ثلاثة أعمال مطلوبة منك: **الإيمان برحمة الرب، إعادة ما كسبته في حياتك بما لا حق لك فيه، وأن تأمر بإعادة الحريات إلى فلورنسا.** وفي لورنزو بالمطلب الأول والثاني. أما المطلب الثالث فقد أدار له وجهه إلى الحائط في صمت كامل. وغادر ساڤونارولا **القصر دون أن يقدم الغفران لإنسان على باب الأبد!**.

كان ساڤونا رولا يعتبر لورنزو المديتشي طاغيًا، فاسدًا، عدوً

الدين ، فى حين كان لورنزو – على الرغم من استشعاره خطر هذا الراهب – يقدر صفاته كمعارض وخصم . وبعد وفاة أمير فلورنسا أصبح رئيس دير سان ماركو مجاهدًا فى سبيل تحرير المدينة ، بإعطاء الشعب حقوقه . وظل فى جهاده الدينى والسياسى والاجتماعى حتى نهاية حياته .

تولى الإمارة پييرو المديتشى ، وكان الوريث الخائب . سلم حصون فلورنسا للملك الفرنسى شارل الثامن ، وبذلك صدقت واحدة من تنبؤات رئيس دير سان ماركو .

وفى عام ١٤٩٥ نفيت أسرة المديتشى ، وغادر شارل الثامن فلورنسا إلى نابولى . وبذلك تولى الراهب الرئاسة دينيًّا وسياسيًّا على المدينة . بحكم كل هذه الظروف . فكان من أوائل أفعاله أن يهجر الشعب نظامه البرلمانى ليؤلف مجلسًا رياسيًّا . إذ لم يرضه فى هذا النظام أن الناس يجتمعون بميدان المدينة فيتعرضون فى هذا الهرج والمرج إلى إرهاب الحكام . وأغرب ما يمكن تصوره أن يقضى ساڤونارولا بأن السيد المسيح هو رئيس الدولة . وبهذا ألبست الدولة إسكيم الصفة الدينية ، وطبيعى أن يعمل الراهب الحاكم على تحقيقها كاملة فيأمر بمنع التفاريح والتباريح والرذائل ، وأن يتخلى الشباب والنساء عن ملابسهم المهفهفة ، وكل مظاهر الأناقة ، وحظر عليهم أعياد الكرنفال . وفُرضت عليهم فى هذا الاحتفال الأناشيد الدينية ، والمواكب الاحتفالية تقودها المقدسات المحمولة ، رموزًا للتبريك ، بدل الحشود المقلدة لوثنية الروم والرومان . وأوقف

التعامل المصرفى ، فهو داخل فى باب الرِّبا . وكان الشعب طوع بنان ساڤونارولا ، فأحرقت مخطوطات الكاتب المتفتح بوكاتشيو ، ولوحات الراهب بارتولوميو ، ولورنزودى كريدى ، وشعراء الكلاسيكية . ومجمل القول فى هذه الظاهرة هو القضاء على عصر النهضة والانفتاح (الرينسانس) . وما الذى ينتظر من إنسان تربى فى الدير ، ودرج على نظام الدير ، وانتقل إلى الدكتاتورية الكنسية وحكم بها ؟ فى أقلّه ، أن لا يسلم من الأخطاء فى الفكر وفى التنفيذ . وقد كان فإن الضغوط التى جدت ، وشعور العقلاء والمتزنين وهم أهل دين مهما قال فى ذلك الراهب الرهيب – بأن لا صلاح لنظام لا يتفق وسلوك الفلورنسيين ، وظهر ذلك فى صورة حزبيات معارضة ، لا اتفاق بينها على المطلوب من تغيير وتبديل . إنما يمكن القول بأن المجموع المتزن لا يريد أكثر من حكم « أوليجاركى » (حكم الجماعة) .

وانكشف خطر الحوادث الفلورنسية ، فى روما . هذا والبابا إسكندر السادس (رودريجوبورجيا) يتلقى إهانات الراهب له ، مثل قوله بأن هذا البابا أبعد ما يكون عن المسيحية ، وأقرب ما يكون إلى المسيخ الدجال ! .

حاول إسكندر بورجيا ببراعته ، ومعسول لسانه أن يجر رِجل الراهب إلى روما . ورفض ساڤونارولا أن يمتثل لأوامر الرئيس الدينى الأعلى . فأصدر البابا أمرًا بمنع الراهب من الخطابة الكنسية . ولا يملك ساڤونارولا سوى أن يمتثل . ولكن الراهب أرسل خطابًا

إلى غازى إيطاليا ، شارل الثامن ، ملك فرنسا ، ينعى عليه تقاعسه ، مع أن واجبه الأول هو إصلاح شئون الكنيسة .

تلمس البابا إسكندر بورجيا سبيل الإغراء ، فاقترح بلطف أن يرقى سافونارولا إلى رتبة الكاردينالية ، وهى فى الطقوس الدينية ترفعه إلى مرتبة الأمراء . وكان رد الراهب العاتى إنه يفضل التاج الأحمر « الدموى » للشهداء .

صعد إلى منبر (« الدومو » بمعنى الكاتدرائية) عام ١٤٩٦ – وأمر ذلك محظور عليه كما ذكرنا – وألقى خطابًا ناريًا فى عيد المرافع (العيد الذى يسبق الصيام عند الكاثوليك) وكله هجوم على البابا بورجيا وعلى إكليروس روما ، وعلى أسرة المديتشى بل على أهل فلورنسا (مما يدل على إحساسه بتحرك أعدائه ، وإدراكه لحرج مركزه فى فلورنسا ، وبخاصة لدى « الذوات » وأصحاب المال والتجارة بسبب ما أصابهم من توقف حال السوق) . وظهرت فى مجموعات الشباب من يقاطعون خطبه . وانتهى الأمر بأعضاء « السنيوريا » إلى إيقاف سافونارولا عن الخطابة فى « الدومو » وذلك لإحساسهم بضيق الشعب من هذا النزاع المستشرى بين الراهب وبين الكرسى الرسولى .

وكان سافونارولا قد أحس بكل ما يدور حوله من كلام ، وأدرك قرب النهاية . فاتخذ قرار عقد مؤتمر عام ، أرسل به كتبًا إلى جميع رؤساء الدول فى أوربا . وتلقط البابا بورجيا من شرطته خطابًا مرسلا من سافونارولا إلى ملك فرنسا شارل الثامن يدعوه إلى هذا المؤتمر.

أما كتابه للبابا رأسًا فقد كان يحذره فيه مما يضمره من شر ، وجاء فى آخر الكتاب : « وبهذا أكون قد فقدت الأمل فى نيافته . فاتجه إلى المسيح وحده ، فهو الذى يختار الضعفاء ليخزوا ويخذلوا أسود الأجيال المنحرفة ، وسيعينني على إثارة المؤتمر فى مواجهة العالم ليرى قداسة العمل الذى أقوم به ، وأتألم من جرائه . وسوف يعاقب فى عدله ، كل من يضطهدنى ويعرقل عملى . أما فيما يختص بذاتى ، فأنا لا أسعى نحو مجد دنيوى ، وإنما أتوق بكل حرارة إلى الموت . وأدعو قداستكم ألا تتأخروا طويلا ، إذ يجب أن ترعووا فى سبيل خلاصكم .

كان الراهب يتخذ أهبته للنهاية . ويبدى استعداده لتحكيم إلهى بواسطة اختراق النار الموقدة (أورديل) ، وهو تقليد من العصور الوسطى . وهنا جاءته الاستجابة إلى طلبه ، حين أقبل عليه راهب فرنسيسكانى من الجنوب الإيطالى ، وأبدى استعداده للدخول معه فى النار ليتعرف حقيقته كمرسل أوغير مرسل . واستجاب صديقه الراهب الدومنيكانى إلى مشاركته فى التحكيم (بالأورديل) . وأشعلت النيران فى (الجورة) ووقف الرهبان الثلاثة على استعداد لعبور النار ، واحتشد شعب فلورنسا على جوانب « الباضة » . غير أن صعوبات طرأت طوال اليوم حتى انفضّ الناس من حوله ، وعادوا إلى دورهم تحت مطر منهمر ، وفى نفوسهم غُصَّة ، وقد ظهر لهم ساڤونارولا كرجل عادى ، فلا هو هنا ولا هو هناك ! .

واحتشد أعداء ساڤونارولا ، وحاصروا دير سان ماركو ، مقر

الرجل ، وقبضوا عليه واقتادوه إلى السجن ، حيث بقى حتى يوم إخراجه ليُشنق ثم يُلقى فى النار . ومهما طال أو قصر حبسه فليس ثَمّة اتفاق على الإجراءات التى تمت معه من التعذيب الرهيب ، وما الذى جرى نتيجة لهذا من اعترافات أو رفض . وترجمة ذلك أمام العارفين بالأمور هى شىء فظيع ، وقد يحدث تحت التعذيب أن يرتد المحكوم عليه ، والأغلب أن تكثر الأكاذيب حول ما جرى ، وما أشك فيه هو أنه لا قدرة إنسانية . ولا احتمالا لهذه الأعمال البربرية ، فالكلام أثناءها لا يتعدى الصراخ والعويل ، والتماس الرحمة ، ثم الإغماء ، والمفروض أن المُعَذَّب يبقى حيًّا حتى تجرى عليه تقاليد الإعدام شنقًا ثم حرقًا ، سواء اعترف المتهم أو أصر على التمسك بما يعتقده ، فهذا لا يقدم ولا يؤخر . وفى حالة سافونارولا اختلفت الأقوال من الارتداد إلى الإصرار .

ويقول المؤرخ البريطانى سيموندز بأن صورة كبيرة للواقعة موجودة بمتحف مدينة بيروجيا ، صادقة فى تصوير مبانى الميدان « البياصة » وقصر السنيوريا فى ناحية ، وأمامها « اللوجيا » مبنى الحرس . وأنا واثق شخصيًّا بأننى رأيت هذه الصورة ، أو نقلا عنها أيام إقامتى فى فلورنسا وزيارتى لإقليم توسكانيا والأقاليم المحيطة بها من الإدرياتيك حتى الشاطئ الغربى لإيطاليا . وقطعًا زرت متحف بيروجيا وشاهدت اللوحة : فى وسط الميدان كوم كثيف من حزمات الحطب ، وقطع الأخشاب ، وفى وسطها الصارى الذى يربط فيه المشنوق سواء أنزل من حبل الإعدام حيًّا أو ميتًا . وفى الصورة نتبين

قنطرة من السقالات تمتد من ركن قصر « السنيوريا » حتى تبلغ موضع الكوم . وفيما أذكر « طشاشًا » رأيت صورة ثلاث جثث الرهبان فى ملابس بيضاء . وفيما أذكر هناك عمود الدخان الأسود ، إشارة إلى بدء حريق رفيقيه قبله . وعندما عُقدت الأنشوطة حول رقبته ، صاح واحد من الجماهير قائلا : « هيّا يانبى ، لقد حل وقت قيامك بمعجزة » . وتقدم الرئيس الدينى القائم بالعملية ، وخلع عنهم إسكيم الرهبان وقال لكل منهم « أفصلك من الكنيسة المجاهدة والمنتصرة » . وأجاب الراهب المصلح بثبات رجل مشرف على الموت : « مجاهدة أى نعم ، أما منتصرة فلا ، وهذه ليست كنيستك » . وآخر كلماته : « إن السيد قد تعذب مثل عذابى ، ومن أجلى » ثم شُدّتْ الأنشوطة حول رقبته ، وفى اللحظة ابتدأ الحريق ، وقطعًا لم يمس اللهَبُ الرجل حيًّا . وقيل بأن صبيًّا رأى قلبه وسط الرماد الذى ذر فى نهر الآرنو . وما برحت موجودة البلاطة التى وضعت حيث سقطت الجثة المحترقة . ومن العادة فى زماننا أن ترى فوق هذه البلاطة باقات زهر فى اليوم الثالث والعشرين من شهر مايو تذكارًا ليوم شنقه وإحراقه .

وبعد وفاته ، على التوِّ غدا قديسًا ، توزع محفوظات خطبه ، وغيرها . وصبت مداليات على شرفه . وصوره رافاييل ضمن علماء الكنيسة ، فى اللوحة المعلقة بحجرة « السنياتورا » بقصر الڤاتيكان . والأغرب أن تقدمت مقترحات من الكنيسة بضم اسمه إلى القديسين ، والكنيسة التى شنقته وأحرقت جثمانه هرطيقًا ، وفاسدًا ،

ولم يتم هذا التقديس ، إنما بعض كنائس الدومنيكان ، تجرى صلاة باسم « أوفيتشيودل سافونارولا » وانتشرت حول اسمه قصص خرافية كالمعتاد . ولكن الأهم من هذا أن الراهب الرهيب حيٌّ فى قلوب أهل فلورنسا .

obeikandl.com